المحاضرة الأولى: الإطار المفاهيمي والتاريخي للعلاقات الدولية

أولا: دلالات معنى العلاقات الدولية

قبل بداية الحديث عن أهم التعاريف التي قدمت حول العلاقات من الضروري الإشارة إلى نقطة مركزية هي الاختلاف الموجود بين العلاقات الدولية وعلم العلاقات الدولية، المعنى الأول يتمثل في التعبير عن فرع أكاديمي، أو فرع علمي اجتماعي يتم تدريسه في نطاق أنظمة التعليم العالي، أي في الكليات والمعاهد والمدارس العليا من جهة أولى، وجهود الباحثين العلمية في شكل كتب وأبحاث ودراسات ومقالات ...إلخ من جهة ثانية، والمعنى الثاني يتلخص في محتوى هذا الفرع العلمي، أي مجموع العلاقات بين مختلف أشخاص وأعضاء المجتمع الدولي، وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى أن التعريف بالعلاقات الدولية وماهيتها ليس مسألة سهلة كما يتصورها البعض، بل هي في غاية الصعوبة والتعقيد، وعلى الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة منذ عام 1648، عندما انبثق نظام الدول القومية الحديث إلى حيز الواقع إثر التوقيع على معاهدة واستفليا الشهيرة وحتى يومنا هذا، يصعب على الدارسين والباحثين إعطاء تعريف جامع وشامل للعلاقات السياسية الدولية.

معاهدة واستفاليا 1648

تعرف العلاقات الدولية اعتمادا على المعنى الاشتقاقي والمعنى الاصطلاحي للمفهوم:

1-المعنى الاشتقاقي للعلاقات الدولية

يتكون هذا المفهوم من كلمتين:

1-1-علاقات: تعني الارتباطات أو الصلات، أي العلاقات والروابط بين طرفين أو مجموعة من الأطراف، سواءا كان هؤلاء الأطراف أفراد أو جماعات أو دول، وهذه العلاقات يمكن أن تكون تعاونية أو صراعية.

1-2- دولية : والتي تعني موضوع العلاقات الدولية أي ما يجمع بين الدول من العلاقات، إذ أن أول معيار لتحديد العلاقات هي الوحدة السياسية الدولاتية "الدولة" بمعنى وجود علاقة أفقة دائمة بين جماعات اجتماعية مركزة ومحددة سياسية، فموضوع العلاقات الدولية يرتبط بالعلاقات الدائمة بين الدول السيدة، إذن بداية العلاقات الدولية هي وجود دول وجماعات سياسية مستقلة ذات السيادة.

ويشير الجمع بين المفهومين إلى أن العلاقات الدولية هي "**العلاقات ما بين الأمم**"، فكثيرا من المفكرين الذين يتناولون ظهور العلاقات الدولية يربطونها بظهور الدولة الأمة، نهاية القرن 15 ميلادي، لكن في صيغتها المتداولة تعني العلاقات ما بين الدول.

2- المعنى الاصطلاحي للعلاقات الدولية

- تعددت التعريفات لمصطلح العلاقات الدولية، ومن أبرزها:

يعرف "**نيكولا سبيكمان**" العلاقات الدولية على أنها : "**علاقات بين أفراد ينتمون لدول مختلفة، والسلوك الدولي هو السلوك الاجتماعي لأشخاص ومجموعات تستهدف أو تتأثر بوجود أو سلوك جماعات ينتمون إلى دول أخرى**".

ويعرفها **جيمس دوغرتي و روبرت بالستغراف** كما يلي: "**تعني العلاقات الدولية ببعض الظواهر مثل المعارض الدولية، الاتصال بالأقمار الصناعية، الألعاب الأولمبية، التعاون الدولي، التعاون الإقليمي، علاقات الفاتيكان مع الدول، الحروب والنزاعات، وطالما أن ثمة ارتباطات بين الظواهر والعلاقات السياسية الدولية** ".

أما جيمس برايس فيعرفها بأنها: "**تلك العلاقات بين الدول والشعوب المختلفة**". إن هذا التعريف بسيط وشامل بمعنى آخر لا يخضع لمنهجية علمية معينة ويمتاز الشمولية التي لم تتناسب مع دقة موضوعات العلاقات السياسية الدولية وتعقيدها.

إن **هانس مورجانثو** أستاذ العلاقات السياسية الدولية الشهير يرى أن: **"جوهر العلاقات الدولية هو السياسية الدولية، التي مادتها الأساسية هي الصراع بين الدول المستقلة ذات السيادة من أجل القوة"**.

ويرى **كارل دويش** أن :**"العلاقات الدولية غير محددة الهوية والقائمة عبر الحدود بمختلف الوحدات السياسية"**.

ويذهب **هولتسي** إلى أن:" **العلاقات الدولية تنشأ داخل كل مجموعة من كيانات سياسية، قبائل، دول، مدن، إمبراطوريات، تربط بينها تفاعلات تتميز بقدر كبير من التواتر ووفق من الانتظام"**.

في حين **يرى مارتن** بأنها " **مجموعة المبادلات التي تعبر الحدود أو تحاول عبورها"**.

- **التعريف الإجرائي:**

وانطلاقا من هذه التعريفات التي تؤكد الطبيعة السياسية والحدودية لكل دولة يمكننا أن نعرف العلاقات الدولية بأنها **"كل علاقة ذات طبيعة سياسية أو من شأنها إحداث انعكاسات وآثار سياسية تمتد إلى ما وراء الحدود الإقليمية لدولة واحدة"**.

ثانيا: العلاقات الدولية كظاهرة تاريخية: دراسة في التطور التاريخي.

تعتبر العلاقات بين الجماعات البشرية ظاهرة قديمة قدم وجود التجمعات البشرية التي دأبت وللحفاظ على بقائها ولتأمين إحتياجاتها ربط علاقات مع غيرها من التكتلات، مع الإشارة إلى أن تلك العلاقات مرت بمراحل يمكن حصرها في ثلاث مراحل وهي: العصر القديم، العصور الوسطى، العصور الحديث.

1- العلاقات الدولية في العصور القديمة: لقد نشأت العلاقات الدولية منذ نشوء الجماعات البشرية، ثم قامت القبائل وتطورت وعرفت الحرب والسلم والتجارة، ومن هنا يمكننا القول بأن تاريخ العلاقات السياسية الدولية تاريخ قديم منذ وجود الإنسان.

أن الكثير من العلماء والباحثين في هذا المجال وخاصة الغربيين منهم يرون أن العلاقات السياسية الدولية لم تنشأ إلا منذ مؤتمر **وستفاليا 1648** عندما ظهرت الدول القومية، ونحن بهذا الصدد لا نشاطرهم هذا الرأي وإلا كيف يمكننا أن نفسر المعاهدة التي وقعها رمسيس الثاني مع ملك الحبشيين في آسيا الصغرى سنة 1278 ق.م والتي نصت على عدة مبادئ: "قيام سلام وأمن بين البلدين وتحالف بين المملكتين وتتعهد المملكتان بأن لا تشن إحداهما غارات على الأخرى".

كما أن الرأي ينم عن تحيز واضح للغرب مفاده أن العلاقات الدولية بدأت ونشأت في الغرب دون الشرق. ولكننا نرى أن العلاقات الدولية ترجع إلى ما قبل مؤتمر واستفاليا بأجيال كثيرة، والكشوف الأثرية توضح أنه نشأت علاقات دولية بين بلاد مابين النهرين منذ نحو **3000 سنة ق.م.**

لقد ذكرنا أن العلاقات الدولية قديمة قدم الإنسانية، غير أن هذه العلاقات كانت قائمة في الغالب على الحروب والفتح والتوسع ولا يمكن بأية حال مقارنتها بالعلاقات الدولية المستقرة الدائمة والقائمة بين الدول في العصور الحديثة لأن الجماعة الدولية أو الوحدة السياسية معناها المعروف حاليا لم تكن قد ظهرت بعد.

إذا تصفحنا التاريخ فإننا سنجد الكثير من الحروب المتواصلة بين الممالك والإمبراطوريات في العالم القديم كقدماء المصريين والأشوريين والبابليين والفينيقيين والفرس والإغريق...إلخ

ففي العصور القديمة وبالذات في عهد الفراعنة، كانت مصر الفرعونية ذات علاقات بالدول المجاورة، كما أتبعت سياسة خارجية قائمة على مبدأ توازن القوى، واستطاعت أن تبرم معاهدة مع الحبشيين التي تضمنت مبدأ السلام الدائم ومبدأ التحالف الدفاعي بين الدوليتين ضد أي عدوان خارجي.

وأن من أبشع أمثلة الحروب في العالم القديم صراع روما وقرطاجة من أجل السيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط. أما بالنسبة للأشوريين فقد كانوا مثالا للوحشية والقسوة في حروبهم، وقد أنكروا أية علاقات ودية مع أي أمة أخرى، وبالتالي يمكن القول إن سياستهم الخارجية كانت قائمة على فكرة الاستعلاء والاستبداد، وكذلك الحال بالنسبة للرومانيين فالعلاقات بينهم وبين الأجانب لم تكن مبنية إلا على أساس الحروب والعداء الدائم وكانوا ينظرون إلى الشعوب نظرة استعلاء وعداء. أما عن العلاقات بين المدن اليونانية فإنها اتصفت بنوع من الثبات والنظام وخاصة في أوقات السلم حيث كانت

قائمة على التعاهد وتبادل البعثات الدبلوماسية المؤقتة، وكانت كلما تحدث الخلافات فيما بينهم يلجؤون إلى التحكيم كما جاء في معاهدة الصلح **بين إسبرطة ورجوس** المبرمة في **470 ق.م**.

أما عن طبيعة العلاقات الرومانية فكانت الإمبراطورية الرومانية تفضا استخدام القوة في علاقاتها بدلا عن الدبلوماسية، ومع هذا فلقد دخلت الإمبراطورية الرومانية في معاهدات مع الدول التي تغلبت عليها، وكانت علاقات روما بالدول المستقلة في حوض البحر المتوسط، فكانت أقرب إلى العلاقات بين المدن اليونانية حيث كانوا ينظرون إلى المعاهدات كنظرتهم إلى عقود مبرمة في ظل القانون الخاص، بل قد وضعوا صيغا تلك المعاهدات مثل معاهدة الصلح، والهدنة، ومعاهدات وقف القتال.

ولما تم لروما فيما بعد السيطرة على الشعوب والمماليك التي غزتها، أسست إمبراطورية وأقامت لها نظاما وذلك لحفظ النظام والاستقرار والأمن في حدودها وفق النظم العامة لإدارة شؤون الحكم مع الاعتراف بالقوانين المحلية للشعوب المحكومة لتنظيم أمور الرعية والهدف ذلك يكمن في رغبة روما في إقامة صرح الإمبراطورية وتدعيم أركانها وسيادة القانون وإخلاد الناس للسكينة لصالح الدولة الحاكمة.

2- العلاقات السياسية في العصور الوسطى

أما العلاقات الدولية في العصور الوسطى فأنها تبدأ منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية **472** م، حتى استلاء محمد الفاتح على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية عام **1453م**. ولقد تميز البناء السياسي في ذلك الوقت بسيادة النظام الإقطاعي الذي اتسم بتجزئة السلطة السياسية بين أشكال مختلفة تابعة بعضها لبعض بروابط شخصية. حيث لم تكن هناك حكومة مركزية تستطيع أن تحفظ الأمن والنظام وتفرض نفوذها على سائر الأرجاء، ولم تكن المملكة الإقطاعية وحدها تباشر السيادة الداخلية والخارجية، ففي الداخل مثلا لم يكن هناك وجود لسلطة عليا مركزية، أما في الخارج فلم يكن في استطاعة الملك أن يعبر عن إرادة موحدة لمملكة أمام المماليك الأخرى.

2-1- العلاقات الدولية والدين المسيحي:

ولكي لا نغالط الحقيقة علينا الاعتراف بالدور الذي لعبه الدين في تطور العلاقات الدولية، حيث استطاع الدين المسيحي ربط جميع الوحدات السياسية المختلفة في وحدة سياسية واحدة، ومن هذه

الوحدة تسربت الكنيسة للهيمنة على المماليك الغربية، وأقامت فيها شبه نظام دولي اتخذته كأداة للسيطرة عليها، ومنذ ذلك الوقت أعلن البابا نفسه رئيسا لهذا العالم وجمع في يديه " السلطة الروحية والزمنية".

إن ما يميز العلاقات الدولية في هذه العصور هو عملية الازدواج في السلطتين إذ استمد البابا هذه الرئاسة من اعتناق مفاده الوحدة السياسية ووحدة مجتمع العالم المسيحي أو ما يسمى بالجمهورية المسيحية، وقد قامت المسيحية بالدعوة إلى الكف عن القتال وإراقة الدماء، ومحاولة بذلك إقامة سلام مسيحي بين ربوع العالم الغربي.

ولقد عرفت العصور الوسطى بعض القواعد الدولية كالمعاهدات والاتفاقيات ومشاكل الحدود والهدنة، وتميزت العلاقات الدولية بتفوق البابا والإمبراطور، بينما ظلت العلاقة بين الأمراء المسيحيين قائمة على نظام الإقطاع. وهنا لابد من القول إن هذا البناء السياسي لا يمكن أن يمثل أي صفة دولية مادام العالم فيه يشكل وحدة هي الجمهورية المسيحية، وهكذا فشل السلام المسيحي والزعم القائل بأن المسيحية والسلام توأمان لا يفترقان، بيد أن قيام الدول الجديدة على إثر تلك الحروب والمجازر ترتب عنه تركيز سلطة الملوك السياسية وتقويمها، ولم يتم القضاء على هذا النظام إلا بظهور الدول الحديثة ذات السيادة والمؤسسة على فكرة قومية.

وخلاصة القول أن المسيحية قد أدت دورا جوهريا في وضع مبادئ الأخلاق الدولية وقواعد القانون الدولي، وهي قواعد كان الهدف منها تنظيم العلاقات بين الدول.

2-1- العلاقات السياسية الدولية في عصر الإسلام:

إن العلاقات السياسية الدولية يسرها بما يتلاءم وتوطيد السلام وتوثيق على التعاون بين مختلف الشعوب، وبما أن الإسلام دين سلام وحرية وإخاء ومساواة، لهذا نادى الإسلام بالفكرة الدولية والأساس الذي يقوم عليه القانون الدولي، هناك من يرى في الإسلام نفس ما تعنيه الحياة الديمقراطية والمساواة بين الأمم الصغيرة والكبيرة وحرية كل منها في إبداء رأيها في كل مسألة تعرض على الهيئات الدولية وسعي الدول المشتركة لتحقيق التعاون والإخاء وتوطيد السلم ودفعا للحرب.

إن لظهور الإسلام وتكوين إمبراطورية إسلامية تهدد أوروبا، بانتزاع السيادة من المسيحية، حدثا جديدا في تاريخ العلاقات الدولية، ولقد اختلف علماء الإسلام في تفسير العلاقات بين المسلمين وغيرهم من الشعوب التي لم تعتنق الإسلام، فمنهم من قال إن العلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها من غير الإسلامية لا تقوم إلا على أساس الحرب والقتال.

ومنهم من قال إن العلاقات تقوم على السلام، وإن الإسلام أخذ باستعمال وسائل الإقناع وليس الإكراه، ونحن بهذا الصدد إلى جانب الرأي الثاني لأن الإسلام لا يجيز قتل الإنسان لمجرد أنه لا يدين بدين الإسلام.

وللإسلام وجهة نظر خاصة في العلاقات الدولية، ذلك أن الإسلام لم يكتب له أن يسود وينشر في العالم كله، بل شاءت الظروف أن يستقر في مجال جغرافي معين، على الرغم من الاتساع الذي بلغه شرقا إلى الهند والصين وغربا إلى الأندلس وغرب أوروبا. وقد نشأ عن هذا قيام دولة إسلامية تعتمد في تكوينها على الوحدة الدينية بغض النظر عن اختلاف إفرادها في اللغة والجنس وتلك الوحدة هي ما تسمى بالأمة الإسلامية أو دار الإسلام.

ولقد تطورت العلاقات لاحقا بين المسلمين وغيرهم حيث تطورت وسائل الاتصال مع المماليك والقبائل، ولم تعد العلاقات بين المسلمين وجيرانهم قاصرة على التبادل التجاري، "بل تعدتها إلى نواح اقتضتها ظروف تنفيذ السياسة الجديدة المبنية على السلام لا على القهر".

وللإسلام باع طويل في عقد المعاهدات والاتفاقيات، حيث عقد المسلمون عددا كثير من المعاهدات والاتفاقيات ومن أهم هذه الاتفاقيات: عهود الذمة كما عرفوا معاهدات حسن الجوار والصداقة والتحالف إضافة إلى معاهدات التجارة. وقد أشتهر المسلمون بشدة حرصهم على رعاية العهود والالتزام بالاتفاقيات التي كانوا يبرمونها مع غيرهم من الدول والشعوب غير الإسلامية.

أما بالنسبة لعلاقة المسلمين بالدول الأخرى فقد ميز الفقهاء بيد دار الإسلام التي اصطلحوا على إطلاقها على الدولة أو الدول الإسلامية، ودار الحرب التي يعني بها الدول التي يدين اهلها بتعاليم مخالفة لأحكام الإسلام. إن هذا التمييز لا يعني إطلاقا بأن الأمة الإسلامية ذات طبيعة عدوانية أو أنها في حالة حرب دائمة مع الدول غير الإسلامية، بل إن أساس العلاقة بين دار الإسلام ودار الحرب هو "السلم ما لم يطرأ ما يوجب الحرب". حيث أقرت الشريعة الإسلامية إقامة علاقات بين الشعوب الإسلامية وتبادل جميع أشكال المعاملات والعلاقات الدبلوماسية والدولية معهم، وهناك من يرى بأن هناك دار ثالثة وهي "العهد والتي لم يظهر عليها المسلمون، وعقد أهلها الصلح بينهم وبين المسلمين يؤدونه من أرضهم يسمى خراجا دون أن يؤخذ منهم جزية رقابهم".

3- العلاقات الدولية في العصور الحديثة

يتضح التطور التنظيمي في العلاقات الدولية في العصور الحديثة في ازدياد الوحدات الدولية وتنظيم العلاقات الدولية بواسطة المؤتمرات وكذا بداية التنظيم الدولي على أساس فكرة الأمن الجماعي في بداية القرن العشرين.

وقد مثل عصر النهضة بداية لانطلاقة كبيرة في ميادين متعددة بما فيها مجال العلاقات الدولية، فبعدما كانت العلاقات بين الشعوب والدول محدودة تقريبا على الجوار، إلا أنها امتدت فيما بعد حين دخل الأوروبيين الذي بدأوا في غزو البحار في علاقات مع أجزاء كانت غير معروفة وبينما صرح البحارة المستكشفين أن دافعهم كان البحث عن التوابل إلا أن الهدف الرئيسي كان التنقيب عن الذهب.

وأهم ما ميز تلك الفترة بشكل رئيسي في غرب أوروبا هو نمو الإتجاهات القومية، لتعرف الدبلوماسية تطورا بطيئا، إلى أن أخذتها البندقية وهي إحدى أقوى وأغنى الدويلات الإيطالية، عن البرزانطيين، وبعدها إنتقل الفن الدبلوماسي إلى بقية دويلات المدن الإيطالية، ثم إلى فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وغيرها.

وأبرز تحول يمكن إعتباره نقطة إنطلاق إلى الدبلوماسية الحديثة هو تعيين السفراء الدائمين المحترفين من قبل الدويلات الإيطالية في القرن 15م، وبالرغم من إنشاء حكام البندقية جهازا منظما ودقيقا يتميز بحسن التنظيم إلا أن الطابع السائد على الدبلوماسية الإيطالية كان الخداع والمراوغة وتدبير المؤامرات.

3-1- العلاقات الدولية في عصر المؤتمرات

يعتبر مؤتمر واستفاليا 1648 والذي أنهى حرب الثلاثين سنة نقطة بداية تاريخ العلاقات الدولية، لتنظيمه للعلاقات السياسية على أسس جديدة واضحة المعالم، وأبرز ما استحدثته معاهدة واستفاليا في مجال العلاقات الدولية:

- مهدت لقيام ما عرف فيما بعد بدبلوماسية المؤتمرات.

- الإقرار بمبدأ المساواة بين الدول دون مراعاة طبيعة نظمها الداخلية.

- إقرار نظام البعثات الدبلوماسية الدائمة محل البعثات الدبلوماسية المؤقتة.

الأخذ بفكرة توازي القوى لتحقيق السلام في أوروبا.

3-2-العلاقات الدولية في عصر التنظيمات

بعد فشل المؤتمرات والمعاهدات الدولية في تحقيق الاستقرار مما دفع بالدول وقادتها إلى التفكير في أسس جديدة تنظم العلاقات فيما بينها، وهما عبر عنه الدكتور **"إسماعيل صبري مقلد** " في كتابه الموسوم ب"العلاقات السياسية الدولية" أنه من الظواهر المميزة للعلاقات الدولية في القرن **20م**، إنبثاق التنظيمات والمؤسسات الدولية على نطاق لم يشهده المجتمع الدولي في أي مرحلة سابقة من مراحل تطوره.

ويمثل عصر التنظيمات الفترة الواقعة بين الحرب العالمية الأولى وبين إلقاء قنبلة ذرية على المينتين اليابانيتين هيروشيما وناكازاكي سنة **1945**، فبعدما أسفرت الحرب العالمية الأولى عن إنشاء أول منظمة دولية عالمية هي عصبة الأمم وكان هدفها تدعيم السلام إلا أنها فشلت ولم تحل جهودها دون قيام حرب عالمية ثانية.

3-3- العلاقات الدولية في عصر الذرة

وقد تميزت تلك الفترة بمجموعة من الخصائص أبرزها:

- التطور الكبير في مجال التكنلوجيا العسكرية، وهو نتيجة التقدم العلمي الكبير وما صحبه من اكتشاف أسلحة فتاكة قادرة على تدمير البشرية عدة مرات...

- انتقال محور العلاقات الدولية من أوروبا إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في إطار الحرب الباردة.

- تعدد الأقطاب في العلاقات الدولية ببروز قوة الصين، ودول أوروبا الغربية وكذا اليابان.

ظهور دول جديدة بعد حداثة استقلالها، وأصبح لها دور بارز من خلال سياسة عدم الانحياز.

- تقنين القواعد الدبلوماسية من خلال اتفاقية فيينا الدولية للعلاقات الدبلوماسية لعام**1961**.